ـ الفَصْلُ الأَوَّل :

النَّقْـدُ الأَدَبِىُّ فِى العَصْرِ الجَاهِلِىِّ

الصَّـحراء!!... ؛ إِنَّـها تلـكَ البيئـة التـى نشـأ العربـىُّ فـى قلبهـا... ؛ إِنَّهـا بيئـةُ الرِّجـال... ؛ تتولَّـدُ الشَّـجاعةُ فى نُفُـوسِ أبنائهـا مـع مجيئهم إلى الحياة ؛ بيئةٌ شـديدةٌ قاسيةٌ ؛ لا تَصنعُ إلاَّ الأَشَدَّاء الأقوياء الشُّجْعان... ؛ الأَنَفَةُ... ؛ الشُّـمُوخ... ؛ الصَّبْرُ الشَّديدُ الذى لا يَدُبُّ إليـهِ يـأسٌ ولا ملـل... ؛ التَّمَـرُّس علـى اعتيـادِ الحيـاةِ القاسيةِ الرَّهيبةِ التى لا تُذَلَّلُ إِلاَّ بالقوَّةِ وَالغلبةِ والقَهر!... ؛

ومن ثُمَّ... ؛ يكُون الفخر... ؛ والتحدِّى... ؛ والنُّزُوعُ إلى طَلَبِ المَجْد ... ؛ نَعَم ... ؛ تَنشأُ مشاعرُ الاعتزازِ بالنَّفْسِ وتقديرها إلى أبعدِ حُدُودِ التَّقْدير .

ثُمَّ... ؛ وفى ليل الصَّحراء ... ؛ حيثُ الهُدُوءُ ؛ والصَّمت القاتل ؛ إِلاَّ ما كـانَ مـن أصواتِ الرِّيَاحِ التى تُداعبُ مشاعرَ أبناء الصَّحراء فى بعضِ الأحايين !!

... ؛ فِى هَذا الجوِّ البديعِ الحَالِم !!... ؛ حَيثُ السُّكُونُ المَهِيبُ الخَاشع !!... ؛ فِى وسطِ هذا المشهدِ السَّاحِرِ العظيم ... ؛ تَهْجُمُ مشاعرٌ لا يُظْفَرُ بها إلاَّ فِى مثلِ هذهِ السَّاعات ... ؛ الحُزْنُ المُبَرِّحُ على من فُقِد !!... ؛ الأَلَمُ المُوجِعُ مـن أجـلِ عاطفِةٍ اسمُهَا : العِشْقُ والهَوى !!.

كان الشِّعْرُ فى العصر الجاهلىِّ مُقوِّماً أساسيًّا من مُقوِّمات الحياة العربيَّة ؛ فهو علم العرب الذى لم يكن عندهم علمٌ أصح منه ؛ يحفظ أنسابهم وأيَّامهم ؛ ويُعبِّر عن آلامهم وأحلامهم ؛ ومن ثَمَّ ؛ فهوَ شِعْرٌ عَرَبِىٌّ أصيل ؛ عربىُّ النَّشأةِ والجُذُور ؛ عربىٌّ فى نهجهِ وأغراضهِ ورُوحهِ ؛ عربىٌّ فى أُصُولهِ وقواعدهِ وأدواتهِ. كُلُّ شىءٍ يبدأُ صغيراً ضعيفاً ؛ ثُمَّ ينمُو ؛ ويكبُر ؛ ثُمَّ يصلُ إلى الذُّروةِ التى ليسَ ورائها من سبيل... ؛ مرَّ الشِّعْرُ العربىُّ بضُرُوبٍ كثيرةٍ من التهذيبِ والتنقيح حتَّى تهيأت لهُ تلكَ الصُّورة البديعة التى استقرَّ عليها ؛ فبينَ الحُدَاء وبين القصيدةِ المُحكمةِ أزمانٌ طويلةٌ ؛ وتاريخٌ مُمتدٌّ من النَّقْدِ الأَدَبىِّ.

كثُرت أسواقُ العربِ فى أواخرِ العصر الجاهلىِّ ؛ ومن ثُمَّ ؛ كثُرت المجالسُ والأنديةُ الأدبيَّةُ ؛ ومن ثُمَّ ؛ عَرِفَ النَّقْدُ الأدبىُّ سبيلهُ إلى الظُّهُور.

ويبدو أن مكَّة كانت أشبه بعاصمةٍ أدبيَّةٍ لبلاد العرب فى العصر الجاهلىِّ ؛ مع أننا لا نعرف نُقَّاداً مكيين فى الجاهليَّة ؛ وإنما نَعلمُ أن العرب كانت تعرض أشعارها على قُريش ؛ فما قبلوه منها كان مقبولاً ؛ وما ردُّوه كان مردوداً ؛ فهُم أهلُ الفصاحةِ والبيانِ بلا نكيرٍ أو مُنازعٍ ؛ ولأنَّ الأُمُور تكُونُ دائماً فى بدايتها كما قُلنا ؛ فقد كانَ للنَّاقِدِ أن يستحسن ما يستحسن ؛ ويُسقط ما يُسقط دُون أن يُعلِّل حُكمهُ ويجهر بأسبابِ الرَّدِّ أو القَبُول.

يُروى أن علقمة بن عبدة التميمىَّ قَدِمَ عليهم فأنشدهم قصيدته التى مطلعها :

هَل مَا عَلِمْتَ وَمَا اسْتَوْدَعْتَ مَكْتُومُ ؟

أَم حَبْلُهَا إِذ نَأَتْكَ اليَـوْمَ مَصْرُومُ ؟

فقالوا : هذه سِمْطُ الدَّهْر! ؛ فشبَّهُوهَا بالعقد النادر ؛ لنفاستها وجودتها ؛ ثم عاد إليهم فى العام التالى فأنشدهم قصيدته التى مطلعها :

طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِى الحِسَانِ طَرُوبُ

بُعَيْدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حَانَ مَشِيبُ

فقالوا : هاتان سِمْطَا الدَّهر!! .

وَرُوى أن النَّابغة الذُّبيانى كان يَقْوِى فى شعره - والإقواء عيبٌ مَعروفٌ من عُيُوبِ القافية ؛ وهوَ اختلاف حركة الرَّوى من بيتٍ إلى بيت - ؛ فنزل يثرب ؛ فأوعز أهلها إلى جاريةٍ أن تُغَنِّيه بقوله :

أَمِن آلِ مَيَّةَ رَائِحٌ أَو مُغْتَـدِى

؛ عَجْلانَ ذَا زَادٍ وَغَيْرَ مُزَوَّدِ

زَعَـمَ البَوَارِحُ أَنَّ رِحْلَتَنَا غَدَاً

وَبِذَاكَ خَبَّرَنَا الغُرَابُ الأَسْوَدُ

فحين مدَّت صوتها بحركة الرَّوىِّ فى كُلٍّ من البيتين ؛ ظهر له هذا العيب ؛ فلم يعد إليه بعد ذلك .

وَهُنا يظهرُ نوعٌ من النَّقدِ الأدبىِّ ؛ فهوَ وإن لم يكُن من قبيلِ النَّقـدِ الفنىِّ الذى يُناقشُ جماليَّاتِ القصيدةِ ؛ بل هُو من قبيلِ النقدِ البنائىِّ الذى يتناول الأُصُول والقواعد التى تتألَّف منها القصيدةُ العربيَّة ؛ إلاَّ أنَّ الميزة هُنا ؛ أنَّهُ نقدٌ مُعَلَّلٌ مُفَسَّرٌ .

ومعظم المُلاحظات النقديَّة التى أُثِرَت عن العصر الجاهلىِّ تدُور حول الموازنة بين الشُّعراء .

وكانت أسواق العرب تضم ندوات أدبيَّة تُنشد فيها الأشعار ؛ وتُلقى الأحكام النقديَّة ؛ وَيُروى أن النابغة الذُّبيانىَّ كانت تُضرب له قُبَّةٌ فى سوق عُكَاظ ؛ ويفد إليه الشُّعراء ؛ فيُنشدونه ويسمعون رأيه ؛ فيُقال : إن الأعشى أنشده ذات مرَّة ؛ وتلاه حسَّان بن ثابت ؛ ثم الخنساء ؛ فَأُعْجِبَ بشعرها ؛ وقال لها : لولا أن أبا بصير - يعنى الأعشى - أنشدنى قبلك ؛ لقُلتُ إنك أشعر الجنِّ والإنس !! .

أى أنه قدَّم عليها الأعشى ؛ وقدَّمها على حسَّان ؛ فغضبَ حسَّان وَرَدَّ على النابغة ردًّا عنيفاً .